مَاذا يَجري تحت الارض الاسبَانية؟

التحالفات على جبهة المعارضة للديكتاتورية تخلق قوتين رئيسيتين

يمكن القول ان الحركة تحت الارض في اسبانيا هي اكبر بكثير مما يجري على سطحها . وان الزمن يسير لصالح الذين يتحركون تحت الارض ، لا لصالح الذين يتحركون فوقها دفاعا عن استمرارهم . فبينما يسعى نظام الحكم الديكتاتوري بكافة الوسائل ، ليضمن بقاءه بعد رحيل الجنرال فرانكو ، ويحاول الدفاع عن نفسه باحكام اسوار السجن الكبير ، ولكن بوهن متزايد وبفعالية متقلصة باستمرار ، يجري تحت الارض الاسبانية الاستعداد لتلقف التركة الفرانكوية بما فيها من قنابل موقوتة للخروج من باطن الارض والمساهمة في توجيه الضربة القاضية للنظام الديكتاتوري .

الجنرال فرانكو

فنظام الحكم الاسباني يدرك جيدا بان معركته الحقيقية هي اثر رحيل الجنرال . فعملية الخلافة بحد ذاتها ستتم في جو من التوتر والاضطراب والاثارة ، لان زوال الكابوس الديكتاتوري بين ليلة وضحاها بعد اكثر من ثلاثة عقود ، سيكون بمثابة الصدمة. كما انها ستجيء في ظروف نمت فيها حدة التناقضات الطبقية ، ونمت الحركة الجماهيرية المعادية للفاشية وقد تمرست طلائعها النضالية في العمل النضالي تمرسا طويلا ، واثبتت قدراتها وفعاليتها في حقيقة انها صمدت في العمل السري ونمت وقوي ساعدها .

وتدرك الولايات المتحدة جيدا هذه الحقيقة . وهي تحرك اجهزتها في اسبانيا لمواجهة هذا «الخطر البرتقالي» المحتمل الثاني في اوروبا . والاتصالات التي يجريها كبار المسؤولين في الاستخبارات المركزية الامريكية مع « المعارضة » التي تحظى بتسامح حاشية البلاط الاسباني في مدريد، تكشف الطريق الذي تسير عليه واشنطن لضمان الخلافة الملائمة والقابلة للاستمرار في هذا البلد الاوروبي. وهناك اليوم عملية اختيار الحصان الافضل، والقادر على مواجهة كل المفاجآت التي ستخرج من تحت الارض. فالمطلوب الشخصية ذات المسحة الليبرالية القادرة على ايهام جماهير الشعب الاسباني بان التغيير القادم هو تغيير حقيقي وليس مجرد تغطية الوجه الديكتاتوري بقناع ديمقراطي . باختصار ، مطلوب « سبينولا اخر » يستطيع ان يلعب لعبة التقدم خطوة والتراجع خطوتين ... لدرء «الخطر». ولكن ما هي فرص نظام الحكم الرجعي في البقاء والاستمرار ؟

ان الشيء الوحيد الاكيد هو وقوف اسبانيا اليوم على عتبة مرحلة غليان سياسي ، ستكون فيها القوى الديمقراطية والاشتراكية في موقع الهجوم. والشواهد في هذه الفترة الاخيرة ، لا تعد ولا تحصى . وتراجعه عن بعض الوعود الليبرالية السابقة وتشديده سياسة القمع يجب ان تؤخذ على انها دفاع الطرف الاضعف ، عن النفس ، اكثر مما هي بطش الطرف الاقوى بالخصم الاضعف .

السلاسل تتكسر .

ان الصوت الاعلى في اسبانيا اليوم هو صوت السلاسل التي تتكسر ونفاذ رياح التغيير عبر الثغرات المتزايدة في ما ارادته الفاشية المنتصرة قبل ٣٥ سنة ، حصنا حصينا لا يمكن اختراقه ، وقد ادركت اخيرا ان ديكتاتوريتها قد ساهمت رغما عنها في نمو الحركة الثورية التي تهددها .

فطوال الاربعين سنة الماضية وشعب اسبانيا يقاوم الطغيان الفاشي . وقد خاضت هذه الجماهير تحت لواء الجمهوريين ، حربا شرسة منذ سنة ١٩٣٦ ضد القوى الفاشية بقيادة الجنرال فرانكو ، وقد اصيبت هذه الجماهير بنكسات الواحدة تلو الاخرى، وقدمت التضحيات الهائلة . فخلال الحرب الاهلية (١٩٣٦ – ١٩٣٩) قتل الفاشيون اكثر من مليون وطني . وما بين سنوات ١٩٤٠ – ١٩٥٦ شهدت اسبانيا اكثر فترات الحكم الفاشي ظلمة ، وقد بلغ عدد الوطنيين الذين اعتقلوا حوالي ٤٠٠ الف نسمة وقد اعدم منهم عشرات الالوف .

ولكن جرائم الفاشية الاسبانية وتضحيات جماهير الشعب كانت بمثابة زرع البذار لنهوض الحركة الجماهيرية من نكسة سنة ١٩٣٩ وما تلاها من عمليات تطهير شرسة للقضاء عليها . فمنذ سنة ١٩٤٠ ، وعلى اثر تسلح الفاشية للسلطة ، والمقاومة الاسبانية تثبت بانها مستمرة بالاثبات بانها موجودة وقادرة على التحرك ولو في حدود . وابتداء بالاضراب العام في برشلونة في سنة ١٩٤٠ ، والبلاد تشهد الانتفاضات العمالية والطلابية في كل المدن الاسبانية تقريبا ، وان كانت تمر بفترات مد وجزر، في الوقت الذي استمرت فيه المقاومة المسلحة في الريف الاسباني . وكانت كلها شواهد على ان مقاومة الفاشية مستمرة .

فعلى اثر انتهاء الحرب الاهلية ، سعى نظام حكم فرانكو الديكتاتوري الى تعزيز ركائزه بتصفية اكبر قدر ممكن من الخصوم. ومنع كل الاحزاب السياسية والنقابات العمالية وغيرها من المنظمات السياسية والاقتصادية . فقرر الحزب الشيوعي الاسباني ، وكان القوة القائدة القائدة في النضال ضد وصول الفاشية الى الحكم ، النزول تحت الارض ، من حيث راح يقود النضالات العمالية والطلابية من تظاهرات واضرابات ، والكفاح المسلح في الريف ، حتى سنة ١٩٤٥ ، عندما قرر التركيز على العمل السياسي السري ، لاعداد الجماهير لهذه المرحلة المتقدمة من النضال ضد الفاشية ، المدعومة من الولايات المتحدة الامبريالية .

لقد انطلق الشيوعيون مجددا ، من بعد مجازر الفاشية وبطشها ، مجموعة اصغر واضعف وكان عليهم تعويض النزيف الذي اصابهم ، وترميم تنظيمهم ، وقد اتبعوا عدة اساليب في النضال. ففي فترة من الفترات كان يوكل الى بعض المثقفين السياسيين السعي والتعرض للاعتقال لدخول السجن ، والقيام بمهمة التثقيف السياسي في اوساط المعتقلين السياسيين . وقد عرف سجن « بورغس » الشهير في وقت من الاوقات بـ«جامعة الحزب الشيوعي » . بينما كان غيرهم ينتشر في الريف للعمل في اوساط الفلاحين الفقراء . كما ركزوا على عملية التسلل في حزب الكتائب الفاشي، في النقابات العمالية التابعة للسلطة ، في سلك الشرطة ، في الصحف . وقد نجحت عملية التسلل والاختراق في توسيع قواعد الحزب .

ولكن ظروف هزيمة الجمهوريون وسياسة البطش والتضحية التي اتبعها الفاشيون في السلطة قد افقدت الحزب عناصره القيادية الاولى ، ودفعت بلجنته المركزية الى المنفى ، الامر الذي ادى الى فقدان الحزب تلك الصلة الوثيقة الدائمة بقضايا الجماهير الشعبية وبالوضع عامة في البلاد . وهذا ما افسح المجال امام بروز التنظيمات الثورية المتعددة لتشكل طلائع الحركة الجماهيرية ، وتقود النضالات الطلابية والعمالية والفلاحية في انحاء البلاد .

وفي سنة ١٩٦٩ ادى انبعاث نضال ثوار الباسك الوطني الى تحرك الوطنيين الاسبان على صعيد جماهيري ضد محاكمات الباسك في بورغس، استمر وتصاعد من ثم ، تحت شعارات النضال الوطني الديمقراطي ، وشهدت اسبانيا لبضعة اسابيع ، موجة من الاضطرابات في كافة انحاء البلاد اظهرت مدى استعداد الجماهير للقتال ضد نظام الحكم الديكتاتوري القائم . ومنذ ذلك التاريخ لم تعرف اسبانيا هدنة حقيقية بين جماهير الشعب الساخطة وبين الحكم الفاشي . وكان ابلغ دليل نمو الوعي السياسي ونضالات الحركة الجماهيرية ان البلد الذي يمنع نظامه التظاهرات والاضرابات العمالية والنشاط السياسي ، كان مسرحا لكل هذه النشاطات ، ولم يكن في يد الحكم من حيلة سوى توسيع سجونه بالاعتماد المتزايد على سياسة القمع والارهاب .

وفي سنة ١٩٧١ عقدت ١٥ منظمة من المنظمات المعادية للفاشية ، مؤتمرا ، قررت فيه تشكيل جبهة موحدة ضد نظام الحكم القائم . وقد حضر المؤتمر مجموعات تمثل الفلاحين والعمال والمثقفين واصحاب المهن الحرة ، وغيرهم من المجموعات السياسية

نوار الباسك

والنقابية . وما بين ذلك التاريخ وسنة ١٩٧٤ الماضية قامت الجبهة الموحدة (الجبهة الوطنية الثورية المناهضة للفاشية) بتشكيل لجانها واللجان المتعاطفة معها ، في انحاء اسبانيا ، وحتى في الخارج حيث يتواجد تجمع عمالي اسباني . وكان الاضراب العام الذي شهدته اسبانيا في الخريف الماضي ، بدعوة من هذه الجبهة ولجانها ، واشترك فيه اكثر من مليون عامل ، وتخللته عمليات احتلال المعامل والمواجهات في الشارع ضد قوى الامن .

كان ذلك الاضراب العام تظاهرة قوة لهذه الجبهة، كررتها في شهر ايار الماضي عندما دعت الى تظاهرات جماهيرية بمناسبة يوم الاستقلال الوطني (يوم تراجعت جيوش نابليون تحت ضغط المقاومة الاسبانية) . وكان يوم ٢ ايار يوم ضرب المنشآت والمصالح الامريكية رمز السيطرة الامبريالية على اسبانيا . وكان يوم الغليان في الجامعات ، ويوم ارتفاع الاعلام الجمهورية ، وكان رفعها بمثابة دعوة القوى الديمقراطية والاشتراكية للفاشية الى مواجهة اخرى بعد تغير ميزان القوى ...

وتشكل الجبهة الوطنية الثورية المعادية للفاشية، مع الجبهة التي شكلها الحزب الشيوعي الاسباني مع التجمعات الليبرالية والديمقراطية والكاثوليكية المناهضة للحكم الديكتاتوري باسم « الطغمة الديمقراطية » ، اقوى قوتين في البلاد اليوم ، في حالة تاهب للمرحلة القادمة على الابواب . ولكن بينما يعتمد الحزب الشيوعي في تحالفاته الجديدة هذه (وقد قامت من بعد التغيير الثوري في البرتغال) على استقطاب القوى الديمقراطية الليبرالية وتسكين « مخاوفها » من طموحات الشيوعيين، بالالتقاء على ارضية معاداة الديكتاتورية الوطنية الثورية تعتمد على قاعدة جماهيرية واسعة بواسطة لجانها التنظيمية الناشطة منذ عدة سنوات، الامر الذي يجعلها الاقوى بين القوتين ، وقد اثبتت خلال السنة الاخيرة مدى قدرتها في قيادة النضال الجماهيري .

ان القوى الديمقراطية والاشتراكية ، المعادية للفاشية ، منظمة ومتحالفة ومستعدة . ورغم الوهن وعزلة الحكم ، فان المعركة ستكون شرسة وطويلة لان الامبريالية الامريكية تدرك بان شبه جزيرة ايبيرية تشهد وضعا ثوريا كامنا من شأنه اذا تبلور بتغلب القوى الثورية في البرتغال على تآمرات والنضال من اجل الديمقراطية ، فان الجبهة الثورة المضادة والسير قدما بالتحول الثوري نحو بناء ديمقراطية الشعب. وبانتصار القوى الديمقراطية والاشتراكية في اسبانيا باسقاط نظام الحكم القائم ان يحدث انقلابا تاريخيا في اوروبا « العالم الحر » واميركا على ما يبدو ، تعمل في اسبانيا الان ، على اساس ان لا تفاجأ كما فوجئت في البرتغال . وهذه كلها عناصر اذا اشرت على شيء فعلى ان رحيل فرانكو عن الساحة لن يكون عامل تسكين بل عامل غليان ، وسيخرج سكان ما تحت الارض الاسبانية الى السطح ليطرقون وبشدة ، ابواب نظام الحكم الديكتاتوري العفن .

●●